الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العـــالي والبحث العلـــمي
جـــامعة باجي مـــختـــــار عنـــابـــة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قســـــم اللـغـة الـعربـيـة وآدابـــــها
د. أمال بوعطيط

مقيـــاس النـــص الشـعـري الـعبـــــــــاسي.

محاضرة: لوحة الترحال عند الشعراء العباسيين

مـــــــاستـر1: أدب عـربـي قـــــــديم.

2020/2019

أدب الرِّحلات هو نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لمكان ما ، فالمؤلف سواء كان شاعرا أو أديبا يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءته غنية، ممتعة ومسلية. رغم التباين الكبير بين ما عاشه كل شخص منهم تبقى الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها بمغامراتها وحيثياتها.

لو نتطرق إلى الشق العربيّ منذ القدم فنجد أنّ الثقافة العربية انفتحت على أشكال أدبية متنوعة، مثَّلت مساحات حرَّة للتعبير الإبداعي، ومع ذلك، ظل الشعر ديوان العرب وفنَّهم الأول، الذي حفظ لغتهم، وخلَّد أخبارهم وبصمتهم الثقافية المميزة، فكان ولا يزال مسرحاً يُظهرون فيه قدراتهم البلاغية المتفاوتة، وبراعتهم التصويرية المدهشة، يصطحبك إلى عوالم نصوص شعرية، خاصة، ترتسم فيها روعة البلاغة لتحلق معها في فضاء البيان الأدبي.

ففي العصر العباسي تطوف الدراسة برحلات أبى نواس من أجل المال واللهو، وارتحال أبى تمام من أجل المجد والمال، والبحتري ورحلاته من أجل المعرفة والشهرة، وزيارة إيوان كسرى، ورحلة ابن الرومي وعبوره نهر دجلة، وتصويره لهذه الرحلة برا وبحرا، وهو من عرف بتشاؤمه وتطيره، ثم رحلة المتنبي إلى كافَور حاكم مصر، ورحلة أبى فراس في سجون الروم، ورحلة التحدي والطموح لأبى العلاء إلى بغداد.

ونجد بالموازاة رحلات شعراء الأندلس: عبد الرحمن الداخل وكيف حكم الأندلس، وابن زيدون وأطماعه في الجاه والسلطة، وغيرها من رحلات الشعراء، التي ضمت من

الطرافة والإحساس الصادق والمشاهدات الجديدة، ما يستحق الدراسة والمعاينة؛ فلكل شاعر قصائده التي أحاطت برحلته فوصفتها مجلية دوافعها وتفاصيلها، وكيف استطاع الشاعر أن يجعل رحلته دراما شعرية بديعة.

1/ مفهوم الرحلة :

أ – لغة :

جاء في لسان العرب لابن منظور "الرحلة "والترحل والارتحال :الانتقال ، وهو الرحلة ...يقال رحل فلان وارتحل ، وترحل، ولا يختلف معه بطرس البستاني في معجمه "محيط المحيط " عندما يقول :"رحل عن البلد يرحل رحلا . ورحيلا وترحالا " شخص وسار" "ومن هذه الأفعال يأتي اسم الرحلة فيعرفها بقوله :" الرحلة النوع من الرحيل، يقال رحل فلان رحلة من لا يعود، وعند المولدين قصة يكتبها المسافر عما جرى له وما رأى في سفره " ؛إذن فالرحلة هي الانتقال .

ب- اصطلاحا :الرحلة " سلوك إنسانيّ حضاري يأتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها، والرحلة العربية مثلا كانت لها ثمار انعكست بإيجابية على الحضارة العربية ، وكأوضح مثال على ذلك، الأمة العربية قبل الفتح ليست هي نفسها بعد الفتح الإسلامي ، فالرحلة تعد نقطة تحول بالنسبة للمجالات الثقافية، والاجتماعية، والاستكشافية .

2/ الرحلة والشاعر:

استطاع العربي أن يصوِّر الرحلة في رسوم لازالت جدران الكهوف تختزنها، فهي تبرز حياة العربي، وصراعه مع الطبيعة، بما تضمه من الحيوانات، والعودة به إلى منازل القبيلة، في تفاصيل طقوسية سحرية ودينية قديمة، لازالت الدراسات الأنتربولوجية تبحث في أصولها ومعارفها.

لقد أحب الشاعر القديم الرحلة، ووقعت من نفسه موقعًا حسنًا؛ فإذا به يختلي مع حيوانه ليتخذه رفيقًا كالناقة والفرس، أو يظل مستفردًا كالنسر، والعقاب، والوعل، والثور

الوحشي، والأتان، والحية،والعقرب، وكأنّ صوت الشاعر المنفرد السارد يتخذ من حيواناته جمهورًا صامتًا يلقنه حكم الحياة، فهو أشبه بالمعلم .

فتجده يقرر السفر هروبا إلى الفلاة طالبًا خلوته واصفا رحلته بأنسب الكلمات التي تعبر عن المقام الذي هو فيه، فالارتحال هو انتقال من عالم تسوده الرتابة إلى عوالم تحفل بالحيوية والدهشة، وحين يعتريك في مكانك السأم، ترحـــــــل إلى أمكنة لم ترَها من قبل، أو بَعُدَ عهدُك بها، لتجلو بصرك بمشاهد جديدة، وتتنـسَّم هواءً يبعث فيك الارتياح، وتتعرف إلى أناس يفتحون لك آفاقاً واسعة على الكون، بعـــــدها تعود إلى دنياك الأولى، وتضع رحال السفر، لتشدَّها إلى رحلة أخرى في مسيرة الحياة.

فيعرض الشاعر في شعـــــره وصفا للرحلة بأدق تفاصيلها محاكيا ما رآه وما عاشه دون إنقاص جزئية من الجزئيات، ســـواء كانت تختص بملمح من الطبيعة، أو حيوانا مفترسا، ليسردها في أبيات ويخلدها ديوان العرب.

<u>3/ قراءات في الرحلة عند الشعراء العباسيين:</u>

أ - أبو فراس الحمداني : شاعر وقائد عسكري حمداني، وهو ابن عم سيـــف الدولة أمير الدولة الحمدانية التي شملت أجزاء من شمالي سوريا والعراق وكانت عاصمـــتها حلب في القرن العاشر للميلاد، عاصر المتنبي وأسِر في إحدى المعارك مع الروم.

و كان أن وصف الشاعر أبو فراس الحمداني رحلة صيد، انطلق فيها مع بعـــض أصحابه، استعمل فيها لغة تميل إلى السلاسة والسهولة، واعتمد في إيقاع نصِّه الموسيقيّ نظام القافية المزدوجة ؛الذي يتوافق فيه كلّ شطرين في قافية واحدة تخالف ما بعدها، وارتكز أسلوبه على تقنية القص والحوار، فنلفيه يتحدث في بدايات قصيدته، حاكياً مرحلة الاستعداد للرحلة، وتجهيز الصقور وكلاب الصيد:

أنعتُ يوماً مرَّ لي بالشَّامِ

ألـــــــــذَّ ما مرَّ مِنَ الأيَّامِ

دعَوْتُ بالصقَّارِ ذاتَ يومِ

عندَ انتباهي سحَراً مِنْ نومي

قُلتُ لهُ: اخترْ سبْعَةً كِبارا

كـــلُّ نجيبٍ يَـــرِدُ الغُــبارا

يكونُ للأرنبِ منها اثنانِ

وخـــــمسةٌ تُفـــــرَدُ للغزلانِ

واجعلْ كلابَ الصَّيْدِ نوبتَيْنِ

تُرسلُ مـــنها اثنينِ بَعْدَ اثنينِ

فالقصيدة اتسمت بالحركة، مصوِّرةً لنا عبث الرفاق وصياحهم بلا نظام يحكمهم، ولا تقاليد تُقيِّدهم، وقد ارتسمت السعادة على وجوههم، في رحلتهم الشائقة ذات الليالي السبع:

ثُمَّ انصرفنا والبِغالُ مُوقِرَهْ

في ليلةٍ مثل الصباحِ مُسْفِرَهْ

حتى أتينا رَحْلَنا بليلِ

وقدْ سُبِقْنا بِجيادِ الخَيْلِ

ثُمَّ نزلْنا وطرحْنا الصَّيْدا

حتى عددْنا مئةً وزَيْدا

لَمْ نزلْ سَبْعَ ليالٍ عددا

أسْعَدَ مَنْ راحَ، وأحظى مَنْ غدا

ب- أبو الطيب المتنبي : هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي أبو الطيب الكندي الكوفي المولد[1]، نسب إلى قبيلة كندة نتيجة لولادته بحي تلك القبيلة في الكوفة لا لأنه منهم، عاش أفضل أيام حياته وأكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، وكان من أعظم شعراء العربية، وأكثرهم تمكناً من اللغة العربية، وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تُتح مثلها لغيره من شعراء العربية.

إنّ الفرضية التي تساغ لنا، وللباحث، الاعتقاد بأنّ خلوَّ حياته من شوق المحبّين هو أحدُ البواعث المهمة التي تكمن في حرصه الدائب على الرحيل، والسفر، والتنقل من مكان لآخر، ومن بلاط أمير لبلاط أميرٍ ثانٍ. وأخيرًا لا يفوتُنا أن نشير لموْقع المال، ودوره في كثرة سعي الشاعر الكبير للغنى.

فضلا عن كثرة الحاسدين، والوشاة، فلولاهم لاستقرَّ في مصر، أو في حلب، فهو يعبر عن ذلك ببيت من قصيدة له مشهورة:

لا أقتري بلدًا إلا على غَرَرٍ ولا أمُرُّ بخلْقٍ غيْر مُضْطغِنِ

الرحلة أيضًا تتطلبُ الالتفات للطبيعة من صَحْراء، ورمال حارة في القيظ، ومنْ أوْديَةٍ، وشِعاب، قال في شعب بوان:

مغاني الشعب طيباً بالمغاني بمنزلة الربيع من الزمان

والتفت أيضًا لوعورة الطّرُق، ولثلوج لبنان التي فاجأته في أثناء توجّهه من حلب إلى مصر:

لبَسَ الثلوجُ بها عليَّ مسالكي فكأنّــها ببياضِها ســـــــوداءُ

وقد أفاضَ الشاعر في تحليل الصور الجديدة التي تمتلئ بها قصيدته في شعب بوان، مبيّنا ما فيها من تصوير مبتكر، يضفي على الاستعارة، والتشبيه، معنىً جديدًا، فهي تشبيهاتٌ، واستعاراتٌ، تلتفّ وتتشابك في الصورة كتشابك النسيج ، وفي هذا منتهى الإبْداع، الذي تطرب به الأسماع، وتهفو له القلوب والأرواح:

غدونا تنفض الأغصانُ فيــه على أعرافـها مثلَ الجمـــــــــانِ

فسرت وقد حجبْن الشمس عنّـــي وجئنَ من الضـــياء بمـا كفاني

وألقى الشــرق منها في ثيابـي دنانيـــــرًا تفـــــرّ مـن البــنانِ

ج - أبو نواس : شاعر عربي من أشهر شعراء عصر الدولة العباسية، ويكنى بأبي علي، وأبي نؤاس، والنؤاسيّ. وعرف أبو نواس بشاعر الخمر، ولكنه تاب عما كان فيه، واتجه إلى الزهد، وقد أنشد عددا من الأشعار التي تدل على ذلك.

وقد طغت عليه صفة المجون حتى صار من رموزها، وصار كثيرون لا يعرفون عنه غيرها، مع أنّه من أكثر الشعراء إبداعاً في فنّ الطرديات، وقد كان لصحبته أمراء بني العباس أثرٌ كبير في ذلك، لكنه أبدع فيها فعلاً.

يقول في وصف رحلة صيد:

لَمّا تَبَدّى الصّبْحُ من حِجابِهِ

كطلعةِ الأشْمطِ من جلبابهِ

وانعدلَ الليلُ إلى مَآبهِ

كالحبشيّ افترّ عن أنْيابِهِ

هجْنا بكَلبٍ طالَما هِجْنا بهِ

ينتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلاّبهِ

من صَرَخٍ يغلو إذا اغلوْلى بهِ

ومَيْعةٍ تَغْلِب مِنْ شبابِهِ

كأنّ متنيه لدى انسلابهِ

مَتْنا شُجاعٍ لجّ في انْسِيابهِ

كأنّما الأُظْفورُ في قِنابهِ

موسى صناعٍ رُدّ في نصابهِ

تراه في الْحُضْرِ إذا ها ها بهِ

يكادُ أن يخرُجَ من إهابهِ

إلاّ الذي أثّرَ من هُدّابهِ

ترى سوامَ الوحشِ تُحتوى بهِ

ففي هذه القصيدة نجد أن أبا نواس يفصّل ويروي كيف كانت رحلة الصيد.

ومما سبق يتجلى أنّ العرب القدامى عرفوا بالتنقل والترحال بسبب بداوتهم، فهم دومًا يحنون إلى الوطن، ولا يكادوا ينسونه لما يمثله من كرم وعزة، ولنا في الشعر العباسيّ أصدق النصوص المتعلقة بالطبيعة، التي تشباكت مع الأصول، مطلقة شحنات عالية من الوفاء، الممزوج بالحنين للبدايات، للنشأة الأولى؛ فالحياة عندهم كانت رعيا للحيوانات كالشياه والإبل، فإن قلَّ الماء أو أجدب راح الشاعر يجوب الصحراء بحثًا عن الكلأ أو حتى للمغامرة ، ولا مراء أنه يجد الكثير من المشقة في رحلاته، فهو يسير على الدوام لتحقق له وجوده في الفلاة.

فالعربي إذ غزا وسافر حمل معه من تربة بلده رملاً وعفرًا، يستنشقه عند نزلة، أو زكام، أو صُداع، وذلك للرابطة الروحية والدينية الموجودة بين الوطن والنفس.